أبو حامد العربي بن علي بن عبد القادر المشرفي ومواقفه من بعض قضايا عصره من خلال مؤلفاته المخطوطة

Abu Hamid-Ben Ali- Ben Abd-el-Kader-El-Macharfi and his positions towards some events of his time through his writings manuscripts

أ.د/ بوشنافي محمد
جامعة الجيلالي ليابس– سيدي بلعباس–
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
bouchenafi22@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2021/06/02 تاريخ القبول: 2021/06/10 تاريخ النشر: 2021/06/30

Abstract:

Abu Hamid-Ben Ali- Ben Abd-el-Kader-El-Macharfi was one of celebrate Algerians oulamas who lived at the end of the Ottoman period and the beginning of the colonial period. He belonged to a famous family his grandfather Abd-El-Kader was allied with the ottoman. El Macharfi lived a troubled period in the history of modern Algeria like the revolutions against the Turks led by the religious brotherhoods and the French occupation in 1830. He mentioned these events in his writings who have become essentials resources for researchres. We will try by this article to express the points of view of our scientist towards these events.

Key words : El-Housm; El-Machrafi; Mascara; El-Emir; Abd-el-Kader; Darkaouia.

الملخص:

أنتج العهد العثماني عددا هاما من العلماء الذين برعوا في شتى أصناف العلوم، ومن هؤلاء نذكر العالم أبو حامد العربي بن علي بن عبد القادر المشرفي الذي ينتمي إلى عائلة المشارف التي سكنت منطقة معسكر وكانت لها أدوار مختلفة خلال هذا العهد. عاصر المشرفي أواخر العهد العثماني وكذا بداية الاحتلال الفرنسي فأثرت تلك الأحداث التي عرفتها البلاد آنذاك في نفسيته فبرز ذلك في كتاباته العديدة، خاصة بعد هجرته إلى المغرب الأقصى. لقد أضحت هذه الكتابات تشكل مصدرا أساسيا وهاما للدارسين، فتم تحقيق بعضها وما زال بعضها الآخر مخطوطا، إنها تقدم لنا صورة حية عن أوضاع تلك الحقبة، ومن خلال هذا المقال نحاول أن نبين مواقفه من بعض الأحداث التي عاشتها البلاد آنذاك.

الكلمات المفتاحية: التجانية؛ الدرقاوية؛ غريس؛ بنو عامر؛ الداي مصطفى باشا؛ الباي حسن.

مقدمة

شكلت عائلة المشارف إحدى الأسر العلمية التي أنجبت عددا كبيرا من العلماء في شتى أصناف العلوم، لقد نالت هذه العائلة المكانة والحظوة لنسبها الشريف وكذا لأدوارها العلمية و الجهادية، سواء خلال الفترة العثمانية أو بعد الاحتلال الفرنسي، إلا أنه رغم أدوارها المتعددة لم يحظ رجالها باهتمام الكتاب والمؤرخين، حيث تبقى جوانب كثيرة من حياة هذه الأسرة بحاجة إلى دراسة وبحث. إلا أن ذلك لا ينفي وجود مؤلفين وأكاديميين، سواء من الجزائر أو خارجها، وبالخصوص من المغرب الأقصى، أنجزوا دراسات جادة حول بعض أفراد هذه الأسرة وإنتاجهم العلمي، وما يعاب على هذه الدراسات أنها ركزت على مجالات محددة كالجوانب العلمية، فبينت الأدوار العلمية لبعض أفراد هذه العائلة و ما تركوه من مؤلفات، مع

التأكيد على أن اهتمامهم انصب على شخصية أبي حامد المشرفي، و ذلك ربما لوفرة إنتاجه العلمي و نشاطه المتعدد خاصة بعد هجرته إلى المغرب في عام 1844.

مما يزيد من أهمية التأريخ لهذه العائلة، أن كثيرا من أفرادها عاصروا أحداثا مصيرية وهامة، سواء خلال العهد العثماني، كفتح وهران الأول و الثاني إلى جانب الثورات الدينية كالدرقاوية و التيجانية، أو بعد الاحتلال الفرنسي و بروز مقاومة الأمير عبد القادر و غيرها من الأحداث البارزة التي كانت لهم فيها مساهمة سواء من خلال المشاركة أو الكتابة و التأريخ لها، و خاصة أبو حامد المشرفي الذي ألف الكثير عن هذه الأحداث.

تسكت المصادر المختلفة التي أرخت لحياة أبي حامد العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي عن تحديد تاريخ ميلاده، فكل ما نصادفه بين طياتها لا يعدو أن يكون تخمينا، غير أنها تعطينا بعض المعلومات عن تاريخ وفاته، ومنها ما يذكره صاحب "إتحاف المطالع"من أنه توفي في عام 1313هـ/ 1895م وعمره حوالي تسعين سنة[1]، ما يجعل تاريخ ميلاده يتراوح ما بين أواخر 1804م وبداية 1805م.

نستخلص من تاريخ ميلاده ووفاته، أن أبا حامد عاصر فترة هامة من تاريخ الجزائر، فخلالها عرفت البلاد أحداثا ونكبات كان لها أثرها البارز على نفسيته، وهو ما يبرز في كتاباته، فكانت بدايتها تلك الثورات التي قادتها الزوايا والطرق الدينية ضد السلطة العثمانية القائمة، ثم وقوع البلاد في قبضة الاستعمار الفرنسي "الكافر" وما أتبع ذلك من مقاومات لطرده، وبالخصوص مقاومة الأمير عبد القادر. وهذا ما سنحاول التطرق إليه اعتمادا على ما خلفه لنا أبو حامد من كتابات.

1– موقفه من السلطة العثمانية:

يقف أبو حامد المشرفي موقفا معارضا للسلطة العثمانية ويصفها بالفساد والظلم، وأنها أنهكت السكان بشتى أنواع المظالم والاضطهاد [2]، رغم أن العلماء ، وبالخصوص علماء معسكر، كان لهم فضل في جهاد الإسبان و في فتح وهران الثاني في عام 1792، وقد تكون تلك الثورات التي اندلعت في مطلع القرن التاسع عشر والتي اتخذت طابعا دينيا، سببا في تغير المواقف، و هذا ما جعل الحكام العثمانيين يتوجسون خيفة من كل رجل دين أو عالم، وفرضوا عليهم رقابة شديدة خوفا من أن يثوروا عليهم مرة أخرى، وبرز هذا القمع للعلماء بشكل جلي في عهد الباي حسن الذي " كثر ظلمه و غضبه و غيظه و غصبه و عبثه بالرعية" [3] ، كما أنه " اجترأ على العلماء و الأولياء و الشرفاء و الرعية فبان منه الجور و الظلم و التعدي، وكثر منه الضلال و هتك المحارم و التردي، وطغا و تجبر و تكبر و كثر منه الفساد و السفك بغير موجب لدماء العباد"[4].

وإذا كان المشرفي قد عارض الحكم العثماني فإن أفرادا آخرين من عائلته كانوا سندا ودعما لهذا الحكم فنالوا الحظوة والمكانة المرموقة لدى بايات المنطقة، حيث تولى بعض أفرادها المناصب الشرعية، وبقوا على ذلك الحال حتى في عهد الأمير عبد القادر، ويأتي على رأسهم العالم عبد القادر المشرفي الذي كان من المقربين لدى أصحاب الحكم، رغم أنه رفض وزهد في تولي المناصب التي عرضت عليه، يقول عنه تلميذه أبو راس أنه " قليل التردد على الأمراء، فضلا عمن دونهم من القواد و الوزراء، فكسب بذلك احترام أهل الحكم و السياسية " [5]، كما أنه كان محل مشورتهم يلجؤون إليه لحل الكثير من القضايا المستعصية التي تواجههم " يخضعون له القضاة و سائر الولاة، و يهبونه و يرجعون إليه و دأبهم تعويلهم عليه في مهمات

الدين و في مصالح عباد الله المهتدين، و عرض عليه القضاء مرارا فلم يلتفت إليه، ولا عرج عليه" [6]. أما ابنه الطاهر المشرفي، فعلى العكس من أبيه، تولى منصب القضاء على عهد العثمانيين، و هو نفس المنصب الذي تولاه محمد بن عبد الله مصطفى سقاط المشرفي[7].

2– موقفه من الثورة الدرقاوية:

عاصر المشرفي أواخر العهد العثماني وكان له موقف معارض من السلطة آنذاك – كما سبق ذكره– على غرار كثير من علماء الجزائر، ونلمس ذلك من خلال دعمه للثورة الدرقاوية التي اعتبرها مخلصة للسكان من ظلم العثمانيين " وذلك أنه لما اشتدت شوكة الأتراك و ما لقت الناس من كثرة الظلم ...دعوا الله في سواد الليل أن ينجيهم من ذلك الويل" [8]، فهو يرى أن الله بعث عبد القادر بن الشريف الدرقاوي كمنقذ و مخلص للسكان من هذا الحيف الذي سلطه عليهم العثمانيون.

يبين المشرفي الأسباب التي دفعت بعبد القادر بن الشريف الدرقاوي إلى الثورة على العثمانيين، و يرجع ذلك إلى تزايد ظلمهم و اضطهادهم للرعية " فسلط الله عليهم بسبب الظلم...شخصا من هذه الطائفة الدرقاوية من الزاوية الغريسية الشرفاوية قام عليهم في شرذمة من أهل وسيلته قليلة ولمتانة دينها و وثوق عهدها فئة جليلة فشتت بها شمل المحال" [9]

يذكر أبو حامد أن الدرقاويين، بفضل قوة إيمانهم وصدقهم –حسب رأيه– أحكموا سيطرتهم على المنطقة، كما فرضوا حصارا على وهران اضطر معه العثمانيون إلى طلب المدد من داي الجزائر – مصطفى باشا آنذاك– فجاءهم عن طريق البحر، ولما اشتد عليهم الحصار اتصلوا بسلطان المغرب يطلبون منه التدخل لدى شيخ الطريقة العربي الدرقاوي ليطلب من تلميذه إيقاف الثورة " لما اشتد حصارهم في وهران و انسدت عليهم سبل البر بعث ملك

الجزائر يومئذ للشريف الغطريف أبي الربيع مولاي سليمان سلطان المغرب يستعطفه في مكتوبه و يقول له فيه أن أسلافكم ملوك الدولة العلوية مع ملوك الدولة التركية كانوا يدا واحدة لا تشاجر بينهم غير أن هذا القائم علينا درقاوي الوسيلة و شيخه من إيالتكم ...و هو الذي يمده بطائفته فرأس الحية عندكم و ذنبها عندنا" [10].

يخبرنا المشرفي أن الدرقاوي لما اتصل به شيخه وأثناه على مواصلة قتال العثمانيين، استجاب فورا لطلبه واعتزل الناس يعبد الله حتى وافته المنية بجبال بني يزناسن على الحدود بين الجزائر والمغرب "واشتغل بالتهجد وعوارف التحقيق إلى أن لاقى الله تعالى على الحالة المحمودة فتوفي بجبل يزناسن في حدود داخل العشرين من القرن الثالث عشر" [11].

تتحدث مصادر أخرى من أن سبب توقف مقاومة الدرقاوي لم تكن بسبب طلب شيخه، كما يذكر أبو حامد، وإنما انهزامه أمام العثمانيين، فعن سير الأحداث تذكر المصادر أن ابن الشريف الدرقاوي تمكن من فرض سيطرته على معسكر، وانطوى تحت لوائه سكان المناطق الداخلية، كما فرض سيطرته على كل المنطقة الممتدة ما بين مليانة شرقا ووجدة غربا[12]، وبعد استكمال استعداداته العسكرية قرر مهاجمة وهران، لكنه فشل في اقتحامها أمام استماتة السكان في الدفاع عنها، مما جعله يكتفي بمحاصرتها فقط.

بسبب تفوق الدرقاوي قرر الداي مصطفى باشا (1798- 1805) إرسال قوات إلى مدينة وهران عن طريق البر، بعدما عيَن عليها الآغا علي، الذي كلفه بمهمة فك الحصار عن وهران، غير أنه اضطر إلى الرجوع إلى مدينة الجزائر، بعدما وجد الطريق إلى وهران مسدودا. وهكذا قام الداي بعزل مصطفى باي وعين مكانه محمد بن محمد بن عثمان المعروف بالمقلش،

والذي تمكن من دخول وهران عن طريق البحر، ثم فك الحصار عنها، واستطاع الانتصار على الدرقاوي بعدما استعان بقبائل المخزن[13].

وقد نطرح سؤالا مضمونه: لماذا دعم المشرفي الدرقاوي ضد السلطة العثمانية؟ والجواب يكمن في أنه كان من أتباع هذه الطريقة، وهذا ما يذكره صاحب كتاب "الأعلام" بأنه كان درقاوي الطريقة وأنه أخذ تعاليمها عن الشيخ العربي الطويل الواسطي أحد تلاميذ العربي الدرقاوي[14]. وما يؤكد هذا الرأي أن المشرفي لما يتحدث عن الدرقاوي يذكره بكلمة سيدي "ولي الله سيدي عبد القادر بن الشريف"[15]، ويعتبره من أهل التصوف والبساطة في العيش، مطبقا لشرع الله على رعيته، يسوسهم بالعدل "...قائما بالعدل تابعا للسنة تاركا للبدعة حافظا للطاعة مجانبا للمعصية لا يمنع رفده ولا يترك ورده ملازما للبس الخرقة التي من شرط مذهب القوم غير ملتفت لحديث النفس الأمارة بالسوء" [16]، لقد وصل من بساطته رغم ما امتلكه من ثروات بفضل انتصاراته أن "كان يتخذ من عظام الحلزون سبحة ويجعل بين رجليه عودا يركبه فرسا يسابق عليه الصبيان وهو في العلوم أدرك الغاية والشأن"[17].

ويؤكد أن الطريقة الدرقاوية هي أصح الطرق وأكثرها انتشارا في المنطقة –أي بايلك الغرب–، فهي مزيج بين الطريقة النقشبندية والشاذلية "وطريقهم طريق جد واجتهاد قريب فتحها كثير خيرها بعيدة عن الرياء والسمعة وكانت ناسخة للطريقتين – النقشبندية والشاذلية– وتعرف بالطائفة الدرقاوية من بين سائر الطوائف فهي أحق للإقتداء بأهلها لأنهم التزموا متابعة السنة وجنبوا عن ارتكاب البدعة وبذلك كثر الله سبحانه سوادهم ودمر حسادهم"[18].

وإضافة إلى ما سبق ذكره فهذا الشيخ –حسب المشرفي– كان زاهدا في الحكم مخالطا لرعيته كبيرها وصغيرها، عاطفا على الضعفاء والمساكين "يحب مجالسة المساكين ويحسن إلى الفقراء والناسكين ولا يرضى أن يقال له سلطان وإن أذعنت لطاعته من في أقاصي الأوطان يحكم حكم عمر وتمتثل الناس لما عنه نهى"[19].

يتعارض موقف أبي حامد مع موقف أبي راس الناصر تجاه الثورة الدرقاوية، حيث يرى هذا الأخير في الدرقاوي رجل فتنة و شقاق، فعارض هذه الثورات واعتبرها وبالا على البلاد والعباد، ففي نظره أن تلك الثورات التي ثار أصحابها على العثمانيين ماهي إلا حركات تمردية غايتها إحداث الفتنة. لقد عبر عن معارضته لثورة درقاوة، التي سماها فتنة، في رحلته لما كتب يقول " ثم عمتنا فتنة درقاوة، و أنا لم نكن فيها، كما قال الشيخ عامر الشعبي للحجاج بن يوسف: وقد خطبتنا فتنة لم نكن فيها أتقياء برة، و لا أقوياء فجرة"[20]. و رغم معارضته لهذه "الفتنة" إلا أنه لم ينجو، ككثير من علماء عصره، من تهمة مساندته لها بسبب وشاية من حساده، وقد دفعه ذلك إلى تأليف كتابه الذي سماه " درء الشقاوة في حرب درقاوة".

إن هذا الاختلاف في موقف العالمين من الثورة الدرقاوية مرده إلى الانتماء المذهبي لكل واحد منهما، فأبو راس كان سلفيا متمسكا بالكتاب و السنة معارضا للطرقية و أصحابها، في حين كان أبو حامد درقاويا –كما سبق التطرق إليه– . يضاف إلى ما سبق التطرق إليه أن أبا راس كان من المقربين من رجال الحكم، فنال الحظوة وكان محل احترام وتقدير من قبلهم فولوه الوظائف الشرعية كوظيفة الإفتاء ثم القضاء و الخطابة، غير أنه عزل منها في عام 1211هـ/ 1796–1797م[21].كما أنه كان من المقربين من الباي مصطفى الذي ثار عليه ابن الشريف الدرقاوي، و كان هذا الباي قد بنى له مكتبة بمعسكر سميت " بيت

المذاهب الأربعة" "وقد بناها الملك الأصفى، و الخليل الأوفى، و المحب الأضفى، السيد الباي مصطفى" ، ولما قتل هذا الباي في موقعة فرطاسة عام 1805 تأثر أبو راس كثيرا لذلك. و عندما نوى إعادة ترميمها و تجديدها أمده الباي محمد بن عثمان بمبلغ من المال قدره مائة ريال، و نفس الباي جهزه بكل ما يحتاج إليه لما نوى السفر لأداء فريضة الحج ، و عند عودته في عام 1227هـ/1812م قدم إليه مائة محبوب[22].

3– موقفه من الطريقة التجانية:

يقف المشرفي من التجانية موقفا متناقضا، فنجده يكن الاحترام والتقدير لشيخها وينتقص من أتباعها، فهو لا يعتبرها طريقة باعتبار أن لا شيخ لها "ولم أسمع للتجاني نفسه طريقة بل له ورد ...وأما الطريق التي يذكر التجانيون عن التجاني فليست بطريق إنما ذكر وأتوا مجتمعا ورقصا ولعبا وهجرانا لأولياء الله هذا ما بلغني من طريقهم"[23].

يرد المشرفي على من يرى أن التجاني من أهل التربية والتعليم، وبالخصوص محمد الكنسوس صاحب كتاب "الجيش العرمرم الخماسي في دولة مولانا علي السجلماسي"، فينكر عليهم قولهم بأن التجاني كان من أهل التربية والتعليم "فإني لم أنتقصه –أي التجاني– إذ قلت أنه من أهل الصلاح وما كذبت في أنه ليس من أهل التربية فمن ادعى أنه من أهل التربية فليخبرني ولهم لي دعوة وإلا فإنما نصحتك ولا شحناء ولا حسد بيني وبين التجاني" [24]، كما يعارضهم في قولهم بتحريم زيارة قبور الأولياء وأضرحتهم "...أنهم كذبوا على النبي صلى الله عليه وسلم والكذب عليه من الكبائر الموجبة للنار... فكيف ينهاهم عن زيارة أولياء الله وينهاهم عن وصلهم...أن من قواعد طريقتهم أن لا يزوروا أولياء الله تعالى" [25].

كما نجده ينتقد أتباع الطريقة التيجانية حين رد على اتهامات الشيخ الكنسوس التيجاني، ومضمونها أن العربي الدرقاوي أشعل نار الثورة الدرقاوية عام 1804 لما حرض تلميذه عبد القادر بن الشريف الدرقاوي على الثورة ضد العثمانيين عوض إطفائها " فويح ابن الكنسوسي الذي تعرض لسخط الله و سخط رسوله حيث تعرض لسب هذا الشيخ المبارك و قال إنه لما بعثه السلطان المرحوم لإطفاء نار الفتنة أوقدها فمعاذ الله أن يوقدها" [26].

4– موقفه من الاحتلال الفرنسي:

شكلت الحملة الفرنسية على الجزائر في سنة 1830 صدمة عنيفة على المجتمع الجزائري بمختلف فئاته، ومنهم العلماء الذين حاولوا تبرير الهزيمة وسرعة سقوط مدينة الجزائر، فأرجع بعضهم ذلك إلى جور وظلم الأتراك العثمانيين، ومن هؤلاء أو حامد بن علي بن عبد القادر المشرفي،

يطنب المشرفي في الحديث عن الحملة الفرنسية على مدينة الجزائر، وما جرى خلالها من مواجهات غير متكافئة بين الفرنسيين وأهل البلاد، حيث حاصر الأسطول الفرنسي سواحل المدينة مستعملا الخديعة بالتظاهر بالهجوم ثم التراجع وتواصل الحال هكذا لأيام عديدة [27]، أما باشا الجزائر، الداي حسين فأخذ يستعد للمعركة الحاسمة، حيث أرسل فرسانا يجوبون أنحاء الإيالة لجمع ما أمكن من المجاهدين لصد العدوان "فبعث الباشا محلة من الفرسان يقدمهم لاغة –الآغا– من أكابر الديوان يحشدون ...الركبان والرجال حتى أكمل العدد في سبع محال بنوها أمام الكفار والكل من أعراب البادية وأزواوة أهل الجبال وانضافت لهم محلة باي الغرب العالي فيها خليفته بن عودة برسالي وأقامت أياما وليالي وجهة الكفار"[28].

لا يعطينا المشرفي تفاصيل حول أعداد هذه القوات ولا عن سير المعركة الحاسمة، فكل ما يذكره أن الفرنسيين هاجموها ذات ليلة فقتلوا منهم الكثير وأسروا آخرين "حتى فجئوهم ذات ليلة فأصبحت تلك المحال كلها ما لها من قرار ...وشتت الأتراك في الحين وصاروا سبايا بناتا وبنين"[29].

حسب المشرفي فإن الفرنسيين وجدوا في خزائن المدينة كنوزا من الذهب والفضة وغيرها تعرضت كلها للنهب والسلب من قبلهم، فأول ما بدأوا به كان مخازن السلاح "فألفوا البيوت والأبراج عامرة منه والأرض البراح"، ثم نهبوا خزائن الألبسة "من كسوة الحرير والملف المرسوس فوجدوا فيها كل ما تلذ به الأعين وتشتهيه النفوس"، بعدها ابتدروا إلى خزائن الذهب "فوجدوا فيها عجايب العجب"، كما عثروا على مؤونة متنوعة من القمح والشعير والحمص والجلبان ما يعجز اللسان على وصفه، ومما عثروا عليه كذلك في المخازن كميات كبيرة من مادة الشمع قدرت بأربعة مكاييل[30].

ما قام به الفرنسيون بعد استيلائهم على ثروات المدينة، تهديم بعض المباني لتوسيع الطرق "فأشار لهم –أي الملك شارل العاشر– بتجديد البنيان وبتخريب ما عمروه ...وأن يتوسعوا بهذا المال ويتمتعون به في الحال فشرعوا في خدمة الطريق يهدون البناء الأعوج كي يتسع الضيق"[31].

5– مصير الداي حسين:

يتطرق المشرفي إلى مصير الداي حسين بعد التوقيع على معاهدة الاستسلام مع القائد دي بورمون De Bourmond يوم 5 جويلية 1830، فيقدم تفاصيل لم نعثر عليها في مصادر أخرى، أو أنها جاءت متناقضة معها، فحسبه أن الفرنسيين أخرجوا الداي من قصره، الذي

كان بحصن القصبة، وأجبروه على أن يدلهم على مكان وجود خزائن الأموال والذهب، فكان لهم ما أرادوا، ومن هناك حملوه ومن معه من النساء والأولاد والخدم إلى باريس، ثم طافوا به في مدن فرنسا، وبعد ذلك أرسلوه ومن معه إلى مدينة الإسكندرية "حملوه ومن معه لمدينة البريز –باريس– ... أمر أن يطوفوا به مدينة مدينة وأخرجوه بنسايه –نسائه– والبعض من حفدته لمرسى الإسكندرية"[32].

تتعارض هذه الرواية مع رواية كثير من المصادر، ومنها الفرنسية، التي تذكر أنه كان من بين بنود معاهدة الاستسلام التي وقعها الداي حسين مع القائد الفرنسي " دي بورمون "، أن تسلم جميع حصون المدينة والميناء للقوات الفرنسية قبل الساعة العاشرة بالتوقيت الفرنسي ليوم 1830/07/06، وفي نفس الوقت يضمن قائد الحملة للقوات الانكشارية نفس الحقوق والحماية التي يمنحها للداي وحاشيته[33].

أما عن مصير الداي حسين فإنه غادر مدينة الجزائر على متن سفينة فرنسية تدعى " جان دارك Jeanne Darc "، جهزها له قائد الأسطول الفرنسي " دي بيري Duperré " حيث توجه إلى نابولي ومنها إلى[34] وهذا يتناقض مع ما ذكره المشرفي من أنه نقل إلى باريس، وقد يكون قوله فيه ما يقال فربما قد سمع عن هذه الحادثة من أطراف أخرى.

لا تذكر المصادر الطريقة التي توفي بها الداي حسين، ولكن المشرفي يفصل في هذه القضية حيث يذكر بأنه قتل من قبل محمد علي باشا، ومضمون القضية أن الداي حسين لما استقر بالإسكندرية طالب مقابلة محمد علي باشا مرارا "فخيم بها –أي الإسكندرية– إلى أن بعث لباشا مصر مكاتبه يأمره فيها المرة بعد المرة إني أردت القدوم لحضرتك والنظر لجميل طلعتك فأعرض الأمير محمد علي عن جوابه وأيس المكاتب من خطابه"[35]، وأمام عدم الرد

عليه اضطر الداي حسين التوجه بنفسه إلى محمد علي ظنا منه أنه من بني جنسه ودار بين الطرفين حوار، فلما سأله محمد مدعيا عدم معرفته أجابه "إني باشا الجزاير التي كانت للمسلمين دخرا من أعظم الدخاير، وكاتبتك مرارا فلم تجب بجوابي سرا ولا جهارا وها أنا وفدت عليك"[36].

نتج عن هذا الحوار غضب محمد علي باشا، فكانت نتيجة ذلك مقتل الداي حسين مسموما "فاغتاظه –أي كلام حسين باشا– وعرف الغضب في وجهه ...فحمى وطيسه في المجلس وقام وقعد حتى كاد أن يتوحش بعد الأنس فسقاه كأسا مسموما فمات من حينه واستراح من مشاق الدنيا كثيرة الجراح"[37]. إن هذا التسميم الذي تعرض له الداي حسين كانت له دوافع –كما يذكر المشرفي– ومضمونها تصرفاته التي كان من نتائجها الوخيمة سقوط الجزائر في قبضة الكافر "والساقي واقف ينظر إليه ويقول هذا جزاء من يعمل وحده برأيه مد الجزاير للكفار وملكها بيده لهم الفاجر الجبار من سوء التدبير وطبعه المنفي النفير لا يسمع منه إلا العار حتى جلب العدو لوسط الدار وقلنا له احذر من شراكهم فإنهم أعداء يلقون الشتات في شباكهم فلا تجادلهم إلا بالتي هي أحسن وكن لله يكن لك ولمن أحسن وإياك والفضاضة"[38].

لا نجد ذكرا لهذه الوقائع في مصادر أخرى، وربما يكون المشرفي قد سمع هذه الرواية فتبناها كما هي، خاصة وأنه كان من بين المعارضين للحكم العثماني مثله مثل كثير من علماء عصره.

6– مقاومة قبائل المنطقة للاحتلال الفرنسي:

تتطرق المصادر، سواء العربية منها أو الأجنبية، لأوضاع بايلك الغرب قبل مبايعة الأمير عبد القادر لقيادة المقاومة، فما يجب الإشارة إليه أن قبائل غريس وبني عامر بزعامة أعيانها كانوا في الصفوف الأولى لصد الخطر الفرنسي وطرده من المنطقة. لقد شكل سقوط وهران في قبضة الفرنسيين في سنة 1831 و إنهاء حكم العثمانيين الممثل في الباي حسن مرحلة عصيبة وخطيرة على قبائل المنطقة التي رأت الخطر الصليبي يهدد أراضيها وأعراضها[39].

يتحدث المشرفي عن مقاومة قبائل منطقة معسكر وبني عامر للاحتلال الفرنسي، فبعد سقوط وهران واستسلام الباي حسن، لم تجد هذه القبائل من يقود الجهاد فاضطروا للخروج في انتظار من يتولى قيادتهم "فنفر كبراء غريس خفافا وثقالا وحملوا زادهم ركبانا ورجالا وربطوا خيولهم بساحة الثغر وبعثوا لبني عامر بالنفور سرا وجهرا فركبوا كلهم وامتثلوا الأمر"[40].

أما عن سير المعارك فقد أبلت هذه القبائل بلاء حسنا وكبدت الكافر الخسائر الفادحة، وأجبروه على التحصن في الحصون، فقل الغذاء عند العدو لما لم تجد أغنامهم المرعى فماتت جوعا، وأمام ذلك لم يبق لهم إلا أكل لحم الخنازير الذي كان يقتات مما يلفظه البحر من أوساخ، وإذا أرادوا أكل لحم الأغنام اشتروها من السكان مذبوحة "وحاصروهم حصارا كبيرا والعاديات تغير عليهم كثيرا حتى لم ترعى لهم غنم وزهقت نفوسها...وضاعت كل سايمة ترعى لما لم تجد مرعى فلم يبق للكافر إلا داجن الخنازير" [41].

يعطي المشرفي بعدا دينيا لهذه المقاومة ويربطها بكرامات ظهرت بين هؤلاء المجاهدين، خاصة وأنه كان بينهم عدد من الأشراف، فكانوا بمثابة الصحابة –رضوان الله عليهم– حتى

أن رائحة المسك كانت تفوح من أجسادهم الطاهرة "وظهرت للقبيلتين كرامات في رباطهم هذا وعلامات لما أن بذلوا نفوسهم في سبيل الله...فاستشهد كل بطل من غريس من وجوه الأشراف والدر النفيس وشاهدنا في تجهيز مئونتهم فوران المسك من قبورهم وروضتهم وصحبتهم في القتال تزيد لذة للرجال وهم يومئذ في ذلك المقدم في مرتبة الصحابة الكرام" (42).

7– موقفه من الأمير عبد القادر:

من خلال مؤلفاته نجد أن موقفه من الأمير عبد القادر كان متناقضا، فأحيانا يبدي عداء اتجاهه وأحيانا أخرى يؤيده، إن هذا الموقف المتذبذب ارتبط بمجموعة من الأحداث عرفتها المنطقة منذ مبايعة الأمير في نوفمبر 1832 إلى غاية هجرة أبا حامد إلى المغرب الأقصى بعد هزيمة الأمير في معركة عين طاقين يوم 16 ماي 1843، حيث سقطت عاصمته المتنقل "الزمالة" التي أسسها بعد سقوط تاقدمت في يوم 25 ماي 1841. شكلت هذه الهجرة تحولا جذريا في موقف المشرفي من الأمير، فأصبح يكن له العداء، ومن يريد الاطلاع على الموقف المعادي للمشرفي تجاه الأمير عبد القادر فليراجع كتابه الموسوم "**طرس الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار وفي عتو الحاج عبد القادر وأهل دائرته الفجار**".

قد يكون الدافع من ذلك موقف السلطان عبد الرحمن المعادي للأمير، خاصة وأن المشرفي حاول التقرب من القصر الملكي لأسباب مادية، نوجزها في الفاقة التي عانى منها هناك(43)، ويضاف إلى ذلك تعيينه لمصطفى بن التهامي خليفة له على مدينة معسكر، في حين لم يعين في هذا المنصب أحد أعيان المنطقة أو شرفائها، ومما زاد من تأزم العلاقة بين الطرفين

ومما زاد في هذا الاحتقان الهجوم الذي خاضه الأمير عبد القادر على أحد أقطاب الطريقة الدرقاوية في المدية، والتي ينتمي إليها المشرفي كما سبق التطرق إليه، إنه الحاج موسى الدرقاوي، وكان هذا الأخير قد أعلن الجهاد ضد الفرنسيين، سمي "بوحمارة" لأنه كان يمتطي حمارا، فولد هذا الوضع رفضا لدى الأمير الذي حاول فرض نفوذه على المنطقة فاندلعت بين الطرفين معركة في حوش عمورة بمليانة، انتهت بانهزام الحاج موسى الذي لجأ إلى الصحراء، وهكذا دخل الأمير المدية وعين عليها محمد بن عيسى البركاني.

يرجع المشرفي موقفه إلى تغير طباع وتصرفات الأمير مع الرعية، خاصة بعد توقيعه على معاهدة التافنة مع الفرنسيين في 30 ماي 1837، "إن عبد القادر لما جار في الأحكام الشرعية وبدل القوانين المرعية وتحكم في الرعية بالحكم الإسرائيلي يجريه على الضعيف ولا يعاقب الشريف... وصار يقبض عشر الحب وزكاة المواشي ويختص بها عماله وعسكره الماشي ويجمع في مل بلد المقبوض واتبع هواه وترك الفروض وما نصب نفسه إلا لقتال المسلمين ففي كل غزوة يقتل من الأعراب خمسمائة رجل وستمائة فأكثر". كما نجده ينتقد بشدة مظاهر الأبهة التي بدأت تبرز على الأمير كوضع مظلة من الحرير تقيه حر الشمس، حتى وصل به الأمر أن شبهه بفرعون وقارون "لتجزع منه النفوس بأن يجعل على رأسه شيئا مرفوعا من الحرير يقيه من حر الشمس ويمشي في ظله فيخرج في زينته وارثا فرعون وقارون ومتشبها بجاههما"[44].

يغير موقفه من الأمير بعد ذلك في كتابه "ذخيرة الأواخر والأول.." فنجده يمجد أعماله ويبارك جهاده ضد الكفار "ولما كانت نية الحاج عبد القادر خالصة في دينه وملة نبيه صلى الله عليه وسلم لم يعاقبه الله في الدنيا فكانت معيشته ومعيشة أهله على يد عدوه وصديقه وأسكنه الله الأرض المقدسة فصار يمشي بأرض تردد فيها جبريله على كل نبي ورسول فيا لها

من مشية بين قبور الأنبياء وأهل الصلاح والأولياء بعد أن جرد سيفه على الأعداء وناضلهم مناضلة الصحابة والأشداء ...سل عن تردده في الميدان بيجو وأحبار الرهبان وسل عن تردده في الصفوف أودية سيك وشعاب خروف...فبسبب سنة الجهاد التي أحياها في آخر الزمان أحيا الله ذكره وبتقديم والده المذكور وحاز حمد الله وشكره"[45].

وخلاصة القول أن أبا حامد بن علي بن عبد القادر المشرفي الحسني كان شاهدا على عصره، فسجل ما عايشه من أحداث، سواء من خلال المشاركة فيها كمقاومة الفرنسيين أو سمع عنها، ولهذا تبقى كتاباته مصدرا هاما لدراسة أوضاع القرن التاسع عشر، سواء بالجزائر أو المغرب الأقصى الذي قضى به جزءا هاما من حياته، وكان من المقربين من القصر الملكي.

الهوامش:

1- المشرفي أبو حامد العربي بن علي بن عبد القادر ، **الحسام المشرفي لقطع لسان الساب الجعرفي الناطق بخرافات الجعسوس سيئ الظن الكنسوس**، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم ك 2276، صفحة 196.

2- ابن سودة عبد السلام بن عبد القادر، **إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع 1171–1400هـ/ 1756- 1980** (تحقيق وتنسيق حجي محمد)، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997، ص 330.

3- المزاري بن عودة الآغا، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران و الجزائر و إسبانيا و فرنسا**، (تحقيق و دراسة بوعزيز يحي)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص 349.

4- نفسه، ص 350.

5- أبوراس الناصر محمد بن أحمد، **فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته** (تحقيق وضبط وتعليق محمد بن عبد الكريم). المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص 53.

6- نفس المصدر والصفحة.

7- الغريسي الطيب بن المختار، **القول الأعم في نسب قبائل الحشم**. مطبعة ابن خلدون، تلمسان، 1961، ص 332- 333.

8– المشرفي العربي، الحسام، صفحة 196.

9– نفس المصدر والصفحة.

10– نفسه، صفحة 200.

11– نفسه، صفحة 201.

12- Grammont. (H.D.de). **Histoire d'Alger sous la domination turque (1515-1830)**. Ernest Leroux, éditeur, Paris, 1887, p. 365.

13– الزهار أحمد الشريف، **مذكرات نقيب أشراف الجزائر**، (تحقيق المدني أحمد توفيق)، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980، ص 87.

14– السملالي العباس بن إبراهيم، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام** (راجعه عبد الوهاب بن منصور)، الجزء9، الطبعة الثانية، مطبعة الملكية، الرباط، 1993، ص 27.

15– المشرفي العربي، الحسام، صفحة 200.

16–نفسه ، صفحة 200- 201.

17– نفسه، صفحة 201.

18– نفسه، صفحة 215.

19– نفسه، صفحة 201.

20– أبو راس الناصر، المصدر السابق، ص 25.

21– نفسه، ص 24.

22– نفسه، ص ص 75- 76.

23– المشرفي، الحسام...، صفحة 60.

24– نفسه، صفحة 61.

25– نفسه، صفحة 71.

26– نفسه، صفحة 200.

27– المشرفي أبو حامد، **طرس الأخبار بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر للمسلمين مع الكفار وفي عتو الحاج عبد القادر وأهل دائرته الفجار**، مخطوط بالخزانة الحسنية، الرباط، رقم 1476، صفحة 16.

28– نفسه، صفحة 17.

29- نفس المصدر والصفحة.

31– نفسه، صفحة 21.

32– نفسه، صفحة 30.

33- **Copie du registres manuscrit des arrêtés du gouvernement général de l'Algérie de 1830 *à 1834*** (manuscrit à la bibliothèque nationale d'Alger sous le n° 3306) p 01.

34- Le marchand (E). **L'Europe et la conquête d'Alger** (d'après des documents tirés des archives de l'état). Librairie académique Perrin et Cbe. Paris, 1913, pp 287-288.

35– المشرفي، طرس الأخبار...، صفحة 30.

36– نفسه، صفحة 31.

37– نفس المصدر والمصدر.

38– نفسه، صفحة 31- 32.

39- محمد بن عبد القادر الجزائري، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر (سيرته السيفية)**، الجزء الأول، المطبعة التجارية، الإسكندرية، 1903، ص 96.

40– المشرفي، طرس الأخبار، صفحة 75.

41– نفسه، صفحة 75– 76.

42– نفسه، صفحة 76- 77.

43– نلمس ذلك من خلال بعض كتاباته مثل.

– مشموم عرار النجد والغيطان المعد لاستنشاق الوالي وأنفاس المولى السلطان، الخزانة الحسنية، الرباط، رقم 12082 ز.

– ديوان في دولة السلطان مولاي الحسن، الخزانة الحسنية، الرباط، رقم 5310.

44– المشرفي، طرس الأخبار، صفحة 251.

45– المشرفي، **ذخيرة الأواخر والأول فيما ينتظم من أخبار الدول**، نقلا عن شرف عبد الحق، "الجزائر في أدبيات رحالة القرن التاسع عشر رحلة المشرفي الجزائري أنموذجا"، **مجلة الخلدونية**، العدد التاسع، جوان 2016، ص 107.